العرب
الأحد 2020/06/14
السنة 43 العدد 11731

تجمعهم القهوة ويفرقهم فيسبوك

مع انتشار فايروس كورونا المستجد فرضت أغلب دول العام إجراءات استثنائية على مواطنيها توقيا من انتشار المرض. أجبر الناس إما على التزام المنازل أو في حالات أخرى التوقي من الاختلاط، وأجبرت شعوب كثيرة على تطبيق ما يسمى بـ"التباعد الاجتماعي"، متخلية عن عادات التجمهر أو التجمع أو الحميمية الاجتماعية والعائلية وغيرها من مظاهر الاختلاط. الوضع صعب على الجميع، خاصة من الناحية العاطفية، لكن هل كان الناس فعلا في حالة تقارب قبل فرض التباعد؟

هيثم الزبيدي
كاتب من العراق
مقيم في لندن

نعاني هذه الأيام من "التباعد الاجتماعي". صار لزاما على الجميع الإبقاء على مسافة من الآخرين. كورونا فرض واقعا اجتماعيا جديدا. ثمة إجماع على أن هذا الواقع مزعج وأنه لن يدوم. هناك حركات احتجاج ضده وهناك ما يكفي من التمرد على السلطات التي تسعى لفرضه. الإنسان، الكائن الاجتماعي، يريد أن ينجو بأهم إنجاز حققه على مدى العصور: المجتمعات.

«التباعد الاجتماعي» الإلزامي لعله فرصة لإعادة النظر في «تباعدنا الاجتماعي» الاختياري الذي أتاحته وسائل التواصل الحديثة

"التباعد الاجتماعي" مبرر بالخوف من المرض ومن الموت. المرض والموت رعبان دائمان في تاريخ البشرية. ثمة جهود جبارة بذلتها الإنسانية للإتيان بعلاج لكل مرض. وثمة جهود عقلية متواصلة للاستئناس بالإيمان وتعليق الأمل على القيامة ما بعد الموت. الثورات العلمية والصحية والفكرية تدور في فلك الحرص على البقاء. لكن هذا البقاء لا شك غير مرتبط بالعزلة، أي ليس البقاء لغاية البقاء، بل بنوعية الحياة التي نحياها بين الناس. لعل هذا هو مبعث فكرة "التقارب الاجتماعي" التي نريد أن نفرضها للرد على رهاب "التباعد الاجتماعي".

لكننا ابتدأنا "التباعد الاجتماعي" منذ عقود. التباعد الحالي هو مشهد مرتبط بالوباء. لكن مظاهر التباعد لدينا صارت مرسخة وتعيد صياغة حياة الناس كل يوم. كل خطوة سلوكية جديدة تنشأ بوجود تقنية حديثة، سنجد فيها الفردانية والذاتية وفرض المسافات.

مشاهد "التباعد الاجتماعي" واضحة. قد لا يحس بها العربي الذي يعمل في مدينة عربية مزدحمة. ستوهمه أفواج الناس التي تستخدم وسائل النقل العام بأنه قريب من الجميع. لكن الصورة تتضح أكثر في المدن العربية ذات الكثافة السكانية الأقل، أو في المجتمعات العربية المغتربة.

نبدأ من الغربة. في المدن الغربية الكبرى كان هناك شيء اسمه "الجالية". هذه الجالية كانت تلتقي في مناسبات واجتماعات. كانت هناك أندية اجتماعية عربية، وكانت هناك ملتقيات دورية لبحث مختلف القضايا. كان البعض يتعمد الحضور في هذه الترتيبات لكي يعطي أولاده الفرصة للقاء أولاد الآخرين، ليتعارفوا، بل ويتزوجوا من "أمثالهم" من عرب أو من جنسيات محددة.

جاءت الفضائيات، ففرضت تكاسلا في الحضور. صار المغترب جزءا من مجتمع عراقي أو مصري يشاهده على شاشة الفضائية. ثم جاءت الإنترنت لتمعن في شق الجاليات إلى كتل ومجموعات، ولتبدأ الأندية الاجتماعية والجمعيات والتجمعات بالتآكل. مع وصول تقنيات الشبكات الاجتماعية، وخصوصا فيسبوك، إلى كل كمبيوتر وكل أيباد وكل هاتف ذكي، كانت تلك التوليفات الاجتماعية قد انتهت وحل "التباعد الاجتماعي" بديلا عنها.

"التقارب" اليوم هو "صداقة" على فيسبوك. وبين حين وآخر، تأتيك مبادرة للّقاء الحقيقي، في مقهى أو جمعية أو ندوة، وعادة لا تأخذها على محمل الجد. لعل التجمعات الدينية في المساجد والكنائس كانت القليلة القادرة على الصمود. لكن حتى في هذه التجمعات سيتحدث إليك الأصدقاء عن صعوبة إقناع الأجيال الشابة بالذهاب إلى أداء الصلوات أيام الجمع والآحاد، بل وحتى الأعياد.

المشهد في دول الاغتراب واضح. لكن جرّب أن تركز أكثر على المشهد ببلداننا. هناك مجالس للقاءات. إما مجالس في المقاهي والكافيهات والمولات، كما في دول شمال أفريقيا والهلال الخصيب، أو مجالس الرجال أو النساء في البيوت في الخليج. سترى الناس يلتقون، يتبادلون الأحاديث ويشربون القهوة والشاي معا. بعد قليل ينصرفون إلى متابعة آخر البوستات والتغريدات على هواتفهم الذكية. يبتسمون للشاشات أكثر من تبادل ابتساماتهم مع من يجالسهم في المقهى والمجلس.

"التقارب الاجتماعي" كوصفة حكومية للحفاظ على الصحة العامة وتجنب الإصابة بالوباء بالتأكيد مزعجة. لكننا كنا مستعدين لها تماما وانسجمنا معها من أول أيام العزل والحجر. لو أن أحدا قال قبل كورونا إن بوسعك أن "تأسر" أكثر من 7 مليارات إنسان في منازلهم لأشهر، ما كان بوسعنا تصديق الأمر. لكن هذا ما حدث بالضبط لأننا "متباعدون اجتماعيا" منذ وقت ليس بالقصير.

أسمع الكثير من الأصوات الآن التي تتحدث عن العمل عن بعد وعن الاستغناء عن المكاتب وعن وظائف بمنظومة عمل أساسها التطبيقات الإلكترونية. هذا كله مفيد، لكنه لا يغني عن الجلوس سوية والعمل سوية والمشاركة الوجدانية سوية.

هنا شكلي، لأن جميع الناس يمارسون نوعا من التباعد الاجتماعي الافتراضي. يحتاجون إلى شخصية كاريزمية تشغلهم بحديث، أو إلى مباراة ساخنة لكرة القدم تجبرهم على الانقطاع عن التحديق في شاشات الهواتف. تجمعهم القهوة ويفرقهم فيسبوك.

"التباعد الاجتماعي" كوصفة حكومية للحفاظ على الصحة العامة وتجنب الإصابة بالوباء بالتأكيد مزعجة. لكننا كنا مستعدين لها تماما وانسجمنا معها من أول أيام العزل

هذا التفتت الإنساني غير مقبول. نحن نضيّع أجمل ما أنجزناه خلال عشرات الآلاف من السنين: أن نأنس إلى بعضنا البعض وأن نتفاهم.

"التباعد الاجتماعي" الإلزامي لعله فرصة لإعادة النظر في "تباعدنا الاجتماعي" الاختياري. العالم الافتراضي جميل وممتع وباعث على الكسل. لكننا كائنات اجتماعية نكتسب قيمتنا وقوّتنا من التقارب مع الآخرين. نحتاج إلى التقارب من جديد وإعادة تعريف كنه العلاقة البشرية مع الآخر.

الأفكار لا تولد فجأة أو بالمصادفة

مراحل تَشكل الفكرة من المخاض إلى الاكتمال النهائي

الأفكار لا تنشأ من فراغ، بل هي وليدة جهد ذهني يستدعي خبرة ومعارفَ مخزونة وفق مسار يلتقي فيه الوعي باللاوعي، حتى وإن كانت خاضعة لجهاز نظري، وصاحبها لا ينجزها دفعة واحدة إلا متى مرّ بمراحل رصدها أهل الاختصاص. ولكن هل هي قاعدة عامّة؟

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

يَعرف كتّاب المقالات أنه ليس من السهل أن نأتي بفكرة جديدة كلّ أسبوع، وأحيانا كلّ يوم، في عالم قيل فيه كلّ شيء تقريبا، حتى أن شغلهم الشاغل يكاد ينحصر في الإجابة عن السؤال "ماذا سنكتب هذه المرة؟"، وفي استحضار دائم لما سبق أن تناولوه لتجنّب التكرار، وتخيّر ما يعتقدون أنّ فيه إفادة للقارئ.

ويزداد الأمر عسرا والذهن استنفارا والأعصاب توترا إذا حان أوان النشر والفكرة الصائبة لم تتشكّل بعد، بل يحدث أن تكتمل المقالة دون التوصل إلى عنوان مناسب، يرسم أجواءها والقضية التي تطرحها دون أن يكشف عن تفاصيلها ولا عن موقفه منها

المقالة، كالقصة القصيرة، في بنيتها التقليدية على الأقل، لها بداية مشوقة، يليها تصعيد تتشابك فيه الآراء والنبش في التفاصيل للوصول إلى ذروة يعقبها انفراج، يتبدى في الموقف الذي يتخذه الكاتب من القضية المثارة، بالتصريح البيّن، أو بالتلميح المستند إلى مقولة لعلَم من أهل الفكر والأدب والعلم والسياسة ممّن يعتدّ برأيهم، فيكون كالمثل الذي يلخّص فكرة ما في كلمات وجيزة تصيب المعنى يلجأ إليها الكاتب لدعم طرحه. وقد تكون النهاية مفتوحة، تدفع القارئ إلى النقاش وإبداء الرأي، أو الاعتراض على ما ورد في المقالة، ناقضا ومصوّبا ومحيلا على شواهد غفل عنها الكاتب، أو مستفسرا عما أشكل عليه.

ولمّا كانت المقالة تقوم على فكرة، يهمّنا أن نتلمّس إجابة عن السؤال التالي:

هذا السؤال شغل المفكّرين والعلماء منذ مدّة، وحاولوا الوقوف على مسار الفكرة منذ طورها الجنيني إلى التشكل والولادة، وأجمعوا على أنها لا تنقدح صدفة، في لحظة ما، دون سابق مخاض. وكان عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكاري مثلا قد تناول المسألة في كتاب "العلم والفرضية" في مطلع القرن العشرين، واستنتج أن الفكرة تمرّ بعدّة مراحل قبل أن تَصدع كما يَصدع النبات الأرض.

أمّا عالم النفس البريطاني غراهام والاس، فقد حصر مسار الفكرة في أربع مراحل أساسية هي الإعداد، والاختمار، والمكاشفة، والتأكيد.

وفي رأيه أن من مفارقات كتابة المقالة أن إعداد فكرتها يبدأ بسؤال يفرض نفسه كلّ مرّة "ماذا أكتب؟". فيجدّ الكاتب في التفكير بحثا عن إجابة، ويشرع الذهن في ترتيب أولوياته وتنظيم أنساقه، بالكيفية نفسها التي يبحث فيها عن حلّ لمشكلة رياضيّة، أو جوّال ضيّعه، أو تذكّر اسم فنان أو عنوان رواية أو شريط سينمائيّ، كما يؤكد عالم الأمراض العصبية ليونيل نڤاش. أي أن تفكيره يتركّز على السؤال قبل كلّ شيء لتحديد المشكلة وحصر أبعادها ورهاناتها.

الأفكار تنمو معنا (لوحة للفنانة زينة مصطفى سليم)

يقول كلود برنار إن الفكرة أساس المعرفة؛ فمنبع كل معرفة تفكير وفكرة، ثم تأتي التجربة لتؤكّدها

بعدها يمرّ الكاتب إلى طور الاختمار، حيث ينصرف الذهن إلى البحث عن حلول ممكنة، بشكل واعٍ وغير واعٍ أحيانا، فيستحضر التجربة الذاتية، ويستكشف ما يثار في وسائل الإعلام وما تتناوله الكتب والمجلات، وقد يطرح فكرته للنقاش مع آخرين ممن لهم زاد معرفي يؤهلهم لإبداء الرّأي في المسألة المثارة، فيتلمّس تلقّيهم إيّاها وموقفهم منها، ليعرف مدى أهميتها لدى المتلقّي، ما يسمح له بتعميقها وإثرائها، أو الاستغناء عنها والبحث لها عن بديل، خصوصا إذا ما نبّهه أحدهم بأنها ليست بالجدّة التي يتصوّر. وأهمّ ما في هذا الطور قدرة كاتب المقالة على التزوّد بالمعلومات، وتحليلها ومقارنة بعضها ببعض، ليجلو منها فكرة تستفيد من تجارب الآخرين، وربما تفنّدها وتكشف عن هناتها.

وبعد الاختمار والمخاض يكون الكاتب قد وجد ضالّته، وعثر على الحل الذي يجيب عن سؤاله، فينتقل إلى طور المكاشفة. هذا الطور الذي يكون بمثابة الانفراج، وبلوغ الغاية، يقتضي تهدئة الأعصاب وتجنّب إرهاق الذهن بالمزيد من التأمل، لأنه يتم حسب علماء الأعصاب عن طريق اللاوعي أكثر من التأمل الواعي نفسه.

يقول ليونيل نڤاش في هذا الصّدد "عندما نبحث عن حلّ معقّد لمشكلة صعبة، ينبغي تحديد الإكراهات الواجب الامتثال لها بشكل واعٍ، ثمّ إحالتها على اشتغالنا اللاواعي القادر على التحرك في شتى الاتجاهات وتوليد تنوع كبير في التصورات". وهذا معناه أن تأملنا الباطن قادر على حشد عدد من الشبكات العصبية أكثر مما يفعله التأمل الواعي، لأن اللاوعي يستعين بحيّز دماغيّ إما ارتكاسا أو من قبيل العادة، والحال أننا لا نفكر دائما في الاستفادة من ذلك الحيّز من تلقاء أنفسنا.

وأخيرا يبلغ الكاتب بفكرته مرحلة التأكيد، حين يضع الفكرة على المحكّ، ويبرزها قبل أن يبتّ بشأنها.

وهي مرحلة قد تطول وقد تقصر بحسب الطابع الملحّ للمشكلة التي ينبغي عليه حلّها والوقت المتوافر لديه. في أثنائها، يمكن أن يراجع فكرته بنفسه أو يَكِل الأمر إلى من يأنس فيه الكفاءة من أصدقائه أو زملائه، قبل أن يصل نصّه إلى قسم التحرير الذي يخضعه بدوره إلى التدقيق، من جهة مضمونه ومناسبته الظرف أو الخطّ التحريري.

هذا في المطلق، على رأي من ذكرنا، ولكن لا نعتقد أن الكتّاب متماثلون في مقاربة مقالاتهم، يلتزمون بهذه المراحل كلها لصياغة فكرتهم. قد يلتقون في عنصرها الأول، أي التساؤل عن الفكرة القادمة بشكل متواتر، فما إن يخلص من فكرة حتى يعود إلى نقطة البدء، يسأل نفسه "والآن، ماذا أكتب؟". وكذلك الثاني أي الاختمار ومنح الفكرة قدرا من الوقت حتى ترتسم خطوطها العريضة في الذهن.

بيد أنهم يختلفون في الجهر بما هم مقدمون عليه أو السكوت عنه، مثلما يختلفون في عرض ما يكتبون على نظر الآخر للتأكيد أو التعديل، أو في اعتبار فعل الكتابة عملا فيزيولوجيا لا يخصّ إلا صاحبه، فإن اهتدى فلنفسه، وإن ضلّ فعليها. وهنري بوانكاري نفسه لم يكن يهمّه أن يعرف أين تؤول به فكرته، ولا أن توافق استنتاجاته الأفكار التقليدية أو تتعارض معها، إذ كان يبحث عن الحقيقة دون الارتهان إلى فكرة مسبقة، فيلغي كلّ ما قرأ أو سمع، ويتجنّب حتى الإفصاح عن أفكاره لغيره ما لم تتشكّل نهائيا. وكأنما يخشى أن يتأثر بآراء غيره على نحو يجعله يشكّ في العمل التحليلي الذي يتم بداخله، مستقلا عنه في وجه من الوجوه، كان يمارس تأملاته وحيدا في سرّيّة تامّة تقريبا، إلى أن تنتأ الفكرة فجأة، بطابعها الموجز الذي نجده في الابتكار الرياضيّ، فتفرض نفسها منذ تلك اللحظة، وللفلاسفة والنقاد بعدها أن يتبيّنوا النظريات التي تنقل الحقيقة المكتشفة، ليُحِلّوها في الموضع الأنسب.

وأيّا ما تكن المسارات المتبعة، فالمهمّ هو الفكرة، فهي أساس المعرفة. يقول كلود برنار "منبع كل معرفة تفكيرٌ وفكرة، ثم تأتي التجربة لتؤكّد تلك الفكرة".